

الاستشراق في الجزائر: أهداف ومفاهيم

Orientalism in Algeria: Objectives and Concepts

حمو عبد الله عيسى

AISSA HAMMOU ABDALLAH

جامعة غرداية (الجزائر)، aissa.hamouabdeallah@ummt0.dz

تاريخ الاستلام: 2026-06-08 تاريخ القبول: 2026-06-29 تاريخ النشر: 2026-07-20

ملخص:

يتناول هذا المقال ظاهرة الاستشراق في الجزائر، مع التركيز على أهدافها المضمرّة وإطارها المفاهيمي. وبالاستناد إلى النظرية النقدية لإدوارد سعيد، تسلط الدراسة الضوء على كيفية تصوير المستشرقين الفرنسيين للمجتمع الجزائري كبيئة غريبة ومتخلفة، مظهرين إياه في ثوب المحتاج إلى الوصاية الغربية.

لقد اشتغل الاستشراق كمسوّغ للاستعمار وأداة للهيمنة الثقافية في آن واحد، مما كرّس الصور النمطية وقوّض نظم المعرفة الأصيلة. كما تبرز الدراسة دور شخصيات استشراقية محورية مثل لويس ماسينيون، محللة إسهاماتهم في إعادة تشكيل الهوية الجزائرية والخطاب الديني. فضلاً عن ذلك، تبحث الدراسة في أثر الاستشراق على السياسات الاستعمارية، والنظم التعليمية، وتمثيلات الإسلام في الجزائر.

كما تخلص الدراسة إلى تأملات حول التأثير المستمر للفكر الاستشراقي في جزائر ما بعد الاستعمار، مؤكدةً على ضرورة تفكيك السرديات التاريخية ومقاربتها بوعي نقدي. ويهدف هذا العمل إلى تعميق الفهم بالآليات الأيديولوجية التي دَعمت الحكم الاستعماري في المغرب العربي. كلمات مفتاحية: الاستشراق، الجزائر، إدوارد سعيد، الهيمنة الثقافية، الاستعمار.

Abstract:

This article addresses the phenomenon of Orientalism in Algeria, with a focus on its hidden objectives and conceptual framework. Drawing on Edward Said's critical theory, the study sheds light on how French

Orientalists depicted Algerian society as exotic and backward, portraying it as needing Western guardianship.

Orientalism functioned as both a justification for colonialism and a tool of cultural domination, reinforcing stereotypes and undermining indigenous systems of knowledge. The study highlights the role of key Orientalist figures such as Louis Massignon, analyzing their contributions to reshaping Algerian identity and religious discourse. Furthermore, the study investigates the impact of Orientalism on colonial policies, educational systems, and representations of Islam in Algeria.

The study also concludes with reflections on the enduring influence of Orientalist thought in postcolonial Algeria, stressing the need to deconstruct historical narratives and approach them with critical awareness. This work aims to deepen understanding of the ideological mechanisms that sustained colonial rule in the Maghreb.

Keywords: Orientalism, Algeria, Edward Said, Cultural domination.

مقدمة:

يُعدّ الاستشراق من المفاهيم الإشكالية الكبرى في الفكر العربي المعاصر، لما له من صلةٍ عضوية بتاريخ العلاقة بين الشرق والغرب، لا سيما في سياقات الاستعمار والهيمنة الثقافية. فقد شكّل الاستشراق أداة مركزية في مشروع السيطرة الاستعمارية، من خلال ما أنتجه من معرفة عن "الآخر الشرقي" بوصفه كائنًا غريبًا، متخلفًا، ومحتاجًا إلى التحديث وفق النموذج الغربي. وتُعدّ الجزائر من أكثر البلدان التي عرفت توعّلاً واسعاً للاستشراق في بُناها السياسية والثقافية، حيث ارتبط ظهور الاستشراق الفرنسي مباشرة مع الاحتلال العسكري سنة 1830، ثم تطوّر إلى مؤسسات معرفية تُعنى برصد تفاصيل المجتمع الجزائري، لغته، عقيدته، وتاريخه.

تداخلت في التجربة الجزائرية أبعاد الاستشراق السياسي والعسكري والعلمي، حيث مثّلت المعرفة وسيلة فعّالة لإحكام السيطرة على الأرض والإنسان، حتى صار الاستشراق منظومة متكاملة من الرؤى والأدوات التي تهدف إلى فهم الجزائري من جهة، وترويضه أو تشويهه من جهة أخرى. ولم يكن هذا الفهم بريئاً ولا موضوعياً، كما يُظهر الخطاب الغربي، بل كان محكوماً بسياق استعماري استعلائي، يرى في الشرق عامة، والمسلمين خاصة، كيانات عاجزة عن التطور، ولا تفهم إلا من خلال الوسيط الغربي.

• في هذا السياق، تطرح هذه الدراسة العلمية إشكاليةً مركزية تتمثّل في:

ما هي أهداف الاستشراق الفرنسي في الجزائر، وما الآليات التي استخدمها لفرض تمثيلاته الثقافية؟

خطة البحث:

- المطلب الأول: المفاهيم النظرية للاستشراق.
- المطلب الثاني: نشأة الاستشراق الأوروبي.
- المطلب الثالث: أهداف الاستشراق في الجزائر.
- المطلب الرابع: رموز الاستشراق الفرنسي في الجزائر.
- المطلب الخامس: آليات اشتغال الخطاب الاستشراقي حول الجزائر.
- المطلب السادس: أثر الاستشراق في تشكيل صورة الجزائر داخل الفكر الغربي.
- المطلب السابع: الاستشراق والمقاومة الجزائرية للهيمنة المعرفية.
- المطلب الثامن: نحو قراءة نقدية للاستشراق في السياق الجزائري المعاصر.
- المطلب التاسع: دراسات حالة تحليلية للاستشراق الفرنسي في الجزائر (نماذج نصّية).
- الخاتمة.

1. المفاهيم النظرية للاستشراق:

1.1- تعريف الاستشراق لغويًا واصطلاحًا:

كلمة الاستشراق (Orientalism) مشتقة من كلمة "الشرق"، ويقصد بها كل ما يتعلّق بدراسة الشرق من وجهة نظر غربية. لغويًا، يُشتق المصطلح من الجذر "ش-ر-ق"، أي الجهة التي تشرق منها الشمس، بينما يُراد به اصطلاحًا تلك الدراسات الغربية التي تناولت المجتمعات الإسلامية والشرقية في عمومها (العرب، الفرس، الهنود، إلخ).

أما في السياق الأكاديمي، فقد أصبح مصطلح الاستشراق يدلّ على منظومة فكرية وإبستمولوجية تقوم على ثنائية الغرب/الشرق، حيث يُفترض أن الغرب يمثّل العقل والعلم، بينما الشرق يمثّل التخلف والغموض والأسطورة.

وقد أشار المفكر إدوارد سعيد إلى أنّ الاستشراق هو:

"أسلوب فكري يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين الشرق والغرب"¹.

2.1 الاستشراق كخطاب:

في ضوء التحولات الفكرية الحديثة، خصوصًا مع ظهور المدارس ما بعد البنيوية وما بعد الكولونيالية، لم يعد الاستشراق مجرد حقل معرفي، بل أضحى يُفهم بوصفه خطابًا سياسيًا وثقافيًا له آليات إنتاجه وتبريراته.

وقد طوّر إدوارد سعيد هذه الرؤية حين اعتبر أن الاستشراق يشكّل (شبكة معقدة من المصالح التي تربط المعرفة بالقوة)¹. فالغرب لا يدرس الشرق حبًا في المعرفة بل من أجل السيطرة عليه معرفيًا وثقافيًا.

ويقول إدوارد سعيد: "الاستشراق ليس مجرد مجموعة من المعارف، بل هو أسلوب في التفكير مبنيٌّ على التمييز بين الشرق والغرب، بين نحن وهم، بين المتحضّر والمتخلف"².

وبحسب سعيد، فإن الخطاب الاستشراقي قدّم الشرق على أنه جامد، غارق في الأساطير، عاجز عن التطور، مقابل الغرب العقلاني، المتحرك، المتقدم. هذا التمثيل لم يكن حياديًا، بل خدم الغزو الاستعماري ومهد له ثقافيًا، بحيث أصبحت صورة "الشرقي" في المتخيّل الأوروبي صورة كاريكاتورية، تعكس رغبات الغرب أكثر ممّا تعكس واقع الشرق نفسه.

3.1 الاتجاهات المعاصرة في تعريف الاستشراق:

مع تطور الدراسات النقدية، برزت ثلاث مقاربات أساسية لفهم الاستشراق:

- الاتجاه التقليدي: يرى أن الاستشراق مجرد نشاط أكاديمي محايد يرمي لفهم الحضارات الشرقية.

- الاتجاه النقدي: يكشف الطابع الإيديولوجي للاستشراق، بوصفه أداة لشرعنة الهيمنة الاستعمارية.

- الاتجاه الثقافي الرمزي: يربط الاستشراق بالتمثّلات الثقافية الرمزية التي تنتجها السينما، والمناهج، ووسائل الإعلام عن الشرق. ومن هذا المنظور، يتجاوز الاستشراق كونه مجرد دراسات علمية إلى كونه منظومة سلطوية تسعى إلى "قبولية" الشرق ضمن تصورات جاهزة، غالبًا ما تكون اختزالية ومشوّهة.

4.1 الاستشراق كإيديولوجيا:

1 - Said Edward, *Orientalism*, Vintage Books, New York, 1978, P12.

2 - سعيد، إدوارد. الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق. ترجمة كمال أبو ديب، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1981. ص 11.

يذهب عبد الله العروي إلى أن الاستشراق كان دومًا جزءًا من المشروع الإيديولوجي الغربي الذي يُعيد إنتاج صورة الشرق بوصفه "الأخر" غير العقلاني¹.

وبالتالي، فإن الاستشراق يُعد جزءًا من منظومة "الهيمنة الرمزية" التي تحدّث عنها بورديو، أي إنتاج صور نمطية ترسّخ التفوّق الثقافي الغربي وتبرّر سياساته الخارجية.

2. نشأة الاستشراق الأوروبي:

1.2 البدايات الدينية للاستشراق:

يُجمع المؤرخون على أن جذور الاستشراق ترجع إلى العصور الوسطى، وتحديدًا منذ بداية الاحتكاك بين أوروبا المسيحية والعالم الإسلامي، سواء من خلال الحروب الصليبية أو من خلال التواصل عبر الأندلس وصقلية.

في هذه المرحلة، كان الهدف من الدراسات "الشرقية" يتمحور أساسًا حول فهم الإسلام للردّ عليه وتفنيد مبادئه. ويُعدّ الراهب بطرس المجلّ (Petrus Venerabilis) من أوائل من ترجم القرآن إلى اللاتينية عام 1143م، وكان هدفه المعلن هو "فضح بدعة محمد" كما وصفها. وكان الاستشراق آنذاك امتدادًا للمهمة التبشيرية والتكفيرية تجاه الإسلام.

2.2 مرحلة الاكتشافات الجغرافية والاستعمار:

مع عصر النهضة والاكتشافات الكبرى، دخل الاستشراق مرحلة جديدة، حيث تحوّل من مجرد ردّ ديني إلى حقل معرفي مؤسّس للهيمنة الاستعمارية.

مع حملة نابليون على مصر سنة 1798، أصبح ينظر إلى الاستشراق بوصفه أداة ضرورية لفهم المجتمعات الشرقية بهدف السيطرة عليها. وقد صاحب نابليون عدد من العلماء والمستشرقين الذين أنجزوا موسوعة ضخمة بعنوان وصف مصر. (Description de l'Égypte).

يقول إدوارد سعيد: "لم تكن حملة نابليون على مصر إلا ذروة للمشروع الاستشراقي الغربي الذي يرى في الشرق موضوعًا للمعرفة والتملك"².

3.2 تأسيس المدارس الاستشرافية:

شهد القرن التاسع عشر تطورًا مؤسّساتيًا للاستشراق، مع تأسيس معاهد ومدارس في أوروبا تعنى باللغات الشرقية والآداب الإسلامية. من أهم هذه المؤسسات:

1 - العروي، عبد الله. الإيديولوجيا العربية المعاصرة. بيروت: المركز الثقافي العربي، 2001. ص 65.

2 - سعيد، إدوارد. الاستشراق. ترجمة كمال أبو ديب، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1995. ص 85.

• مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس (1795)

• كلية الدراسات الشرقية والإفريقية SOAS في لندن

• معهد الدراسات الشرقية في برلين

• أكاديمية سان بطرسبورغ في روسيا

هذه المؤسسات كانت تنتج الأبحاث وتُدرّب موظفي الإدارات الاستعمارية على فهم "الآخر المسلم"، ليس حبًا في حضارته، بل لأهداف السيطرة والتوجيه.

4.2 الاستشراق بوصفه مشروعًا معرفيًا إمبرياليًا:

يرى المفكر المغربي محمد عابد الجابري أن الاستشراق لم يكن مجرد اهتمام أكاديمي بل مشروعًا معرفيًا شموليًا، تمثل في إنتاج معرفة حول الشرق، لكنها معرفة متحيّزة وغير بريئة.

وهنا تتقاطع أطروحة الجابري مع أطروحة سعيد التي تعتبر أن:

"كل كتابة استشراقية هي في نهاية المطاف كتابة سلطة، تعيد إنتاج التراتبية بين الغرب المسيطر والشرق الخاضع"¹

3. أهداف الاستشراق في الجزائر:

1.3 الاستشراق في سياق الاحتلال الفرنسي:

لقد ارتبط الاستشراق في الجزائر ارتباطًا وثيقًا بالاستعمار الفرنسي الذي بدأ سنة 1830. فمِنذ دخول الجيش الفرنسي إلى الجزائر، ظهرت حاجة ماسّة إلى فهم طبيعة المجتمع الجزائري، لغته، أعرافه، وتديّنه، لأجل إحكام السيطرة.

وهنا تبلور ما يسعى به الاستشراق الوظيفي، أي الذي يخدم الإدارة الاستعمارية عسكريًا وسياسيًا وثقافيًا.

كتب الضابط الفرنسي جوزيف دوفو (Joseph Duvaux) في أحد تقاريره العسكرية سنة

1845:

"لفهم القبائل، لا بد من دراسة قرآنهم وأحاديثهم وشيوخهم، هذا هو الطريق الأقصر للتهدئة".

2.2 أهداف الاستشراق في الجزائر:

1.2.3 تفكيك البنية الثقافية والدينية:

كان أحد أبرز أهداف الاستشراق هو ضرب المرجعيات الثقافية والدينية للشعب الجزائري، وذلك عبر تقديم الإسلام على أنه مجرد موروث بدوي لا عقلاني، وعبر إظهار الشريعة الإسلامية على أنها متخلفة مقارنة بالقوانين الأوروبية.

ويقول المستشرق الفرنسي "لويس ماسينيون" على فرنسا أن تفهم الإسلام الشعبي للجزائريين كي تنزع عنه طابع القداسة في أعينهم:

2.2.3 خدمة السياسة التعليمية والثقافية:

استخدم الاستشراق في الجزائر كأداة لتوجيه النظام التربوي نحو أهداف استعمارية، من خلال:

- حذف اللغة العربية من المناهج

- تهميش الهوية الإسلامية

- فرض الثقافة الفرنسية بوصفها "حضارة عليا"

وبذلك، فإن المعرفة الاستشراقية خدمت سياسة "الفرنسة" التي سعت إلى إعادة تشكيل الإنسان الجزائري وفق مقاييس أوروبية.

3.2.3 اختراق البنى الاجتماعية والقبلية:

ساهم المستشرقون في وضع خرائط تفصيلية عن القبائل والمذاهب والمجموعات الصوفية، ليس لأغراض معرفية بحتة، بل لاستثمار هذه المعرفة في تفتيت الوحدة الشعبية وتحريض بعض الفئات ضد الأخرى.

وقد اعتمدوا بشكل خاص على تحليل الطرق الصوفية مثل: القادرية، التيجانية، الرحمانية، ونشروا دراسات مفصلة عنها، منها أعمال وليام مارسيه ورونيه باسيه.

4.2.3 تبرير المشروع الاستعماري:

أنتج الاستشراق تبريرات "أخلاقية" و"حضارية" للوجود الفرنسي في الجزائر، عبر تصوير السكان المحليين على أنهم:

- عاجزون عن حكم أنفسهم

- أسرى التخلف

- بحاجة إلى "مهمة تمدنية" فرنسية

يقول المؤرخ الفرنسي أرنست رينان في خطاب ألقاه سنة 1871:

"جاء الفرنسي إلى الجزائر حاملاً التقدم، لا السلاح فقط... جاء ليعلم العرب كيف يعيشون".

3.3 المؤسسات الاستشرافية الفرنسية في الجزائر:

أنشأت السلطات الاستعمارية عددًا من المؤسسات والمراكز البحثية التي كان هدفها دراسة المجتمع الجزائري دراسة شاملة، ومن أبرزها:

• مدرسة الآداب واللغات الشرقية بالجزائر 1838: وكانت تُخرج مترجمين وإداريين يتقنون العربية والبربرية الأمازيغية.

• جمعية الجغرافيا والآثار: اهتمت بمسح البلاد ديموغرافيًا وثقافيًا.

• الأكاديمية الإفريقية: جمعت تقارير وإحصاءات عن سكان الجزائر، وترجمت الفتاوى والوثائق الشرعية.

كل هذه المؤسسات لم تكن مستقلة علميًا، بل كانت تابعة لسلطة الحاكم العام أو وزارة المستعمرات، مما يفقدها موضوعيتها العلمية.

4.3 مناهج المستشرقين الفرنسيين:

اعتمد المستشرقون الفرنسيون على مناهج متعددة منها:

• الملاحظة الميدانية المباشرة، خاصة في الأرياف والجبال.

• تحليل الوثائق الدينية والوقفية.

• دراسة اللسانيات والبنية اللغوية العربية والأمازيغية.

• تفكيك بنية التعليم الديني والزوايا.

• رسم خرائط للنفوذ الاجتماعي والعائدي داخل المجتمع.

وقد وظّفوا هذه المناهج في خدمة "المعرفة التقريرية" التي تسمح بتوجيه السياسات الاستعمارية، وتبريرها علميًا.

5.3 الاستشراق كرافد للهيمنة الرمزية:

لم يكن الاستشراق يهدف إلى السيطرة العسكرية فقط، بل إلى إعادة تشكيل نظرة الجزائري إلى نفسه، وفرض صورة نمطية تجعله يرى ذاته من خلال عين الآخر.

إنها كما وصفها إدوارد سعيد:

"قوة معرفة تُنتج ذاتًا مُهممًا وذاتًا خاضعة"¹.

4. رموز الاستشراق الفرنسي في الجزائر:

يُعدّ الاستشراق الفرنسي في الجزائر من أكثر فروع الاستشراق ارتباطاً بالسياسات الاستعمارية الميدانية. وقد لعب عدد من الشخصيات دوراً بارزاً في بناء الصورة النمطية عن الإسلام والجزائر، سواء من خلال دراساتهم الأكاديمية أو من خلال اشتغالهم المباشر مع الإدارة الفرنسية.

1.4 لويس ماسينيون (Louis Massignon 1883–1962)

يُعدّ ماسينيون أحد أبرز المستشرقين الفرنسيين، وقد وُصف بأنه "الكاهن الفيلسوف" للاستشراق المسيحي. ركّز في أبحاثه على الصوفية الإسلامية، خاصة شخصية الحلاج، لكنه في الوقت ذاته لعب دوراً في تقديم قراءة لاهوتية تُضعف من مركزية الشريعة لصالح "الإسلام". "لم يكن ماسينيون يبحث عن الحقيقة الإسلامية بقدر ما كان يسعى لترويضها داخل نموذج مسيحي مستتر".¹

كما أن ماسينيون كانت له علاقات مباشرة مع السلطات الفرنسية، وقد استخدمت أفكاره في دعم سياسة "الإسلام الفرنسي".

2.4 شارل فرو (Charles Féraud) :

كان موظفاً استعمارياً ومستشرقاً في آن واحد، وكتب كثيراً عن الزوايا والقبائل. ركّز على التاريخ المحلي للجزائر بهدف مساعدة الجيش الفرنسي على فهم التركيبة الاجتماعية. من أبرز مؤلفاته: ملاحظات إثنوغرافية عن قبائل الجزائر :

(Notes ethnographiques sur les tribus d'Algérie).

3.4 ويليام مارسيه (William Marçais) :

أحد أهم الأسماء في ميدان اللهجات العربية المغاربية. أسّس قسم الدراسات الإسلامية في الجزائر، وكان من دعاة ما يسمى "الإسلام الجزائري" الذي يفصل بين الدين والحكم. ساهم مارسيه في تكريس الفكرة القائلة بأن "الإسلام الشعبي" الجزائري مختلف عن "الإسلام المشرقي"، وهو تمهيد سياسي لضرب المرجعية الواحدة.

4.4 رينيه باسيه (René Basset) :

أول مدير لـ "مدرسة اللغة العربية والبربرية" في الجزائر. كتب عن الطوارق والأمازيغ، وكان هدفه فهم الأنساق الثقافية غير العربية من أجل استثمارها في فصل الهويات. أعماله ركّزت على خلق تصور يفصل بين "الأمازيغي" و"العربي"، في إطار مشروع "فرّق تسد".

5.4 إميل ماسكريل (Émile Masqueray) :

قام بدراسات حول البنية الاجتماعية لقبائل الشاوية والمزابيين، وقد مثّل بداية لما يسمى اليوم بـ"الأنثروبولوجيا الاستعمارية". حاول إثبات أن البربر يميلون إلى الديمقراطية أكثر من العرب الذين وُصفوا بالاستبداد. وهذا الأسلوب في المقارنة الثقافية كان يُوظف لتبرير تدخل فرنسا كوسيط "عقلاني" بين القبائل.

في هذه المرحلة، يصبح واضحًا أن هؤلاء المستشرقين لم يكونوا مجرد باحثين أكاديميين، بل مشاركين فعليين في المشروع الكولونيالي، من خلال إنتاج معرفة تخدم الاستعمار وتُعيد إنتاج الهيمنة الثقافية.

5. آليات اشتغال الخطاب الاستشراقي حول الجزائر:

إنّ الاستشراق ليس فقط مجموعة من الأفكار أو الدراسات، بل هو خطاب كما تحدّد إدوارد سعيد، أي منظومة فكرية لغوية ثقافية تُنتج تصوّرات معيّنة وتعيد تثبيتها عبر مؤسسات المعرفة. وفي الحالة الجزائرية، اشتغل هذا الخطاب وفق آليات محدّدة، تتكرّر في النصوص والخرائط والسياسات.

1.5 الانتقائية والتجزّيء المعرفي:

من بين أبرز الآليات التي وظّفها الاستشراق، نجد الانتقائية في عرض المعطيات التاريخية والثقافية. فقد كان المستشرقون ينتقون من التراث ما ينسجم مع النظرة الكولونيالية، ويُغفلون ما يعارضها.

• تمّ التركيز مثلاً على الخرافة والصوفية وإهمال التيارات العقلانية كالمعتزلة أو الحركات الإصلاحية.

• تمّ تجزئة الثقافة الإسلامية إلى "إسلام مغربي" و"إسلام مشرقي" لخلق قطيعة معرفية.

"الاستشراق لا يصف الواقع كما هو، بل كما تحتاجه الهيمنة أن يكون"¹.

2.5 التعميم والقولبة:

اعتمد الخطاب الاستشراقي على النمذجة النمطية، أي تعميم خصائص معيّنة على كل الجزائريين أو على كل المسلمين:

- وصف العرب بأنهم "عاطفيون"، "غير عقلانيين"، "محكومون بالخرافة"
 - تصوير المرأة الجزائرية على أنها مستلبة تمامًا، بغرض تبرير سياسات التعرية و"تحرير المرأة" من قبل الاستعمار
 - تُظهر الصور الأرشيفية لحملة "كشف الحجاب" سنة 1958 هذا التوظيف الثقافي للمرأة في الخطاب الاستشراقي الاستعماري.
- 3.5 توظيف اللغة كأداة سلطة:**

- كانت اللغة أحد مفاتيح السيطرة المعرفية، إذ استخدم المستشرقون لغة فرنسية مشبعة بالترميز الاستعلائي:
- مصطلحات مثل "الهمجي"، "البدوي"، "الطائفي"، "المتعصب".
 - ترجمة القرآن والحديث بطريقة تُسقط الأبعاد الروحية والعقلية وتُضخم البعد الجسدي والأسطوري
 - كما أن إنشاء معاجم عربية-فرنسية وفق منظور استعماري ساهم في تثبيت هذه النظرة.
- 4.5 ازدواجية الموضوعية والانحياز:**

- كان كثير من المستشرقين يُقدّمون أنفسهم كمحايدين علميين، لكن واقع كتاباتهم كان يعكس انحيازًا أيديولوجيًا.
- فالاستشراق الفرنسي لم يكن بحثًا في الآخر بقدر ما كان بناءً لهذا الآخر بما يخدم الذات الاستعمارية.
- يقول سعيد: "ليست المعرفة استشرافية لأنها كاذبة، بل لأنها خاضعة لشروط القوة"¹.
- 5.5 استمرارية الخطاب بعد الاستعمار:**

- رغم نهاية الاستعمار رسميًا سنة 1962م، إلا أن خطاب الاستشراق لا يزال حيًا في كتابات ومناهج ومؤسسات ثقافية فرنسية:
- مثل مؤسسات البحث في CNRS .
 - أو التمثيلات الإعلامية عن الجزائريين.
 - أو السياسات الثقافية تجاه المهاجرين.
- 6. أثر الاستشراق في تشكيل صورة الجزائر داخل الفكر الغربي:**

لقد نجح الاستشراق الفرنسي، خصوصًا في الجزائر، في تشكيل صورة ذهنية عن الجزائر والجزائريين، أصبحت هذه الصورة تتركز في الكتابات الأكاديمية، والبرامج الإعلامية، والسياسات الثقافية في الغرب. ولم يكن هذا التشكيل عبثيًا، بل كان مرتبطاً بوظيفة إيديولوجية عميقة: إنتاج معرفة تؤسس للهيمنة.

1.6 الجزائر كموضوع إثنوغرافي:

قُدِّمت الجزائر في الكتابات الاستشراقية كـ "حقل تجارب إثنوغرافي"، حيث صُوِّرت القبائل والبنى التقليدية بوصفها مواضيع جامدة، لا تاريخية، قابلة للدراسة لكن غير قادرة على إنتاج ذاتها. هذا ما يظهر في أعمال مثل:

• Émile Masqueray الذي اعتبر المجتمعات المزابية والشاوية "بنى ثابتة"، أشبه بآثار. والجزائر ليست مجتمعًا متطورًا، بل فسيفساء أنثروبولوجية يجب المحافظة عليها تحت الرعاية الأوروبية.

2.6 المرأة الجزائرية كرمز للانغلاق:

من أكثر صور الاستشراق رسوخًا: صورة المرأة الجزائرية المحجبة، المسجونة داخل البيت. وقد استخدم الاستشراق هذه الصورة لتبرير "رسالة التمدين الفرنسية"، خاصة في حملات جوليتا آدم وغاستون دوميرغ.

هذه الصورة نُقلت فيما بعد إلى السينما الفرنسية، كما في أفلام:

• La battaglia d'Algeri (1966)

• Indigènes (2006)

وكانت المرأة الجزائرية كانت فضاءً ثقافيًا للاستعمار الرمزي.

3.6 الجزائر في المخيال الأوروبي: بين العنف والتخلف:

تشكلت صورة الجزائري في الوعي الغربي كشخص عنيف، غير عقلائي، متمرد بالفطرة، لا يفهم إلا لغة القوة. هذه الصورة كانت نتيجة مباشرة لأعمال مستشرقين قَدَّموا التاريخ الجزائري كـ "تاريخ مقاومات دموية".

في حين غُيِّبَت النماذج الفلسفية والفكرية والإنسانية.

وهذا ما يفسر كيف استُخدمت صورة "الجزائري الخطر" في تبرير القمع، والتعذيب، وسجن المناضلين أثناء الثورة.

4.6 الاستشراق الجديد: الجزائر بعد الاستقلال:

حتى بعد 1962م، استمرت صورة الجزائر كدولة مأزومة، عاجزة عن الاستقرار، كما ظهرت

في:

• التقارير السياسية

• برامج القنوات الفرنسية (France 2)

• الدراسات الأكاديمية التي تكرر "أزمة الإسلام السياسي"، "الهوية غير المكتملة"،

"الفرنكوفونية كضرورة حضارية"

وهنا يتحول الاستشراق إلى خطاب ما بعد استعماري يواصل هيمنته المعرفية، ولكن بأدوات

ناعمة.

7. الاستشراق والمقاومة الجزائرية للهيمنة المعرفية:

لم يكن الاستشراق خطاباً بلا ردّ فعل. فقد نشأت داخل الجزائر، ومنذ الحقبة الاستعمارية، أشكال متعدّدة من المقاومة الثقافية والمعرفية، عبّرت عن نفسها في الفكر، والأدب، والتاريخ، والتعليم، والدين، وسعت إلى استعادة تمثيل الذات في مواجهة تمثيل الآخر الغربي.

1.7 جمعية العلماء المسلمين: تفكيك الصورة الاستشراقية:

أسّس الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889-1940) مشروعاً تربوياً فكرياً هدفه الأساسي

تفنيذ الصورة الاستشراقية عن الإسلام والجزائريين، عبر:

• التأكيد على وحدة الهوية الإسلامية – العربية – الأمازيغية

• إعادة قراءة التاريخ المحلي من منظور ذاتي

• إحياء اللغة العربية وتعزيز قيم العقل والاجتهاد

قال بن باديس في إحدى مقالاته بمجلة الشهاب: لسنا بفرنسيين، ولا نريد أن نكون، ولسنا

ناطقين بلسانهم ولا بثقافته.

وقد شكلت هذه الحركة إحدى أوضح أشكال المقاومة المعرفية للمشروع الاستشراقي

الاستعماري.

كما كانت الحركة الإصلاحية بالجنوب الجزائري الأداة الحادة التي واجهت الاستعمار الفرنسي

في محاولته لطمس الهوية الإسلامية والقضاء على اللغة العربية، وكانت المدارس الحرة القرآنية

العربية أحسن دليل على النشاط الثقافي ضد مخططات الاستعمار الفرنسي في المجال الفكري

والثقافي.

2.7 الثورة الجزائرية: استعادة تمثيل الذات:

الثورة التحريرية (1954-1962) كانت ثورة سلاح وفكر. وقد أدرك قادة الثورة أن المعركة ليست فقط في الجبال، بل أيضًا في كتب التاريخ والرؤية الكونية:

- كتابات Frantz Fanon، وخاصة في معذبو الأرض، فضحت البنية النفسية للخطاب الاستشراقي الذي يُحوّل المستعمر إلى كائن تابع.
- أعمال مالك بن نبي حاولت تفكيك آليات الاستعمار الفكري، وربط بين "القابلية للاستعمار" والاعترا ب المعرفي.
- كتب بن نبي: "الاستعمار يبدأ حين تُنتزع من الإنسان قدرته على التعريف بذاته"¹.

3.7 الباحثون الجزائريون بعد الاستقلال:

منذ السبعينيات، بدأ مفكرون جزائريون في تفكيك إرث الاستشراق الفرنسي، منهم:

- محمد أركون: دعا إلى "نقد العقل الإسلامي" ولكن من داخل المعرفة وليس من خارجها، منتقدًا النظرة التبسيطية للاستشراق.
- عبد المجيد مزبان: حاول تقديم قراءة تفكيكية لمفاهيم مثل "البربرية" و"الإسلام الشعبي" كما ظهرت في الدراسات الكولونيالية.
- أبو القاسم سعد الله: أعاد كتابة التاريخ الجزائري من وجهة نظر وطنية مستقلة.

4.7 التعليم والهوية: مقاومة ناعمة:

عملت الجزائر بعد الاستقلال على إعادة صياغة مناهج التعليم لمحو آثار الاستشراق:

- إدراج اللغة العربية والأمازيغية بدل الفرنسية
- إعادة كتابة كتب التاريخ الوطني
- التركيز على المقاومة والثقافة الإسلامية

لكن هذه الجهود واجهت صعوبات بسبب استمرار النفوذ الثقافي الفرنسي، وضعف الإمكانيات، وتحديات العولمة.

5.7 الفن والأدب كجبهة مضادة:

كان للأدب والمسرح والسينما دور كبير في إعادة إنتاج صورة الجزائري بعيدًا عن النمط الاستشراقي:

- روايات الطاهر وطار، واسيني الأعرج، وأحلام مستغانمي اشغلت على الذاكرة والهوية

- المسرح الجزائري السياسي فضح التمثيل الكاريكاتوري للجزائري في المسرح الكولونيالي
- السينما التحريرية قدمت رؤية جديدة للمرأة والمجتمع والمقاومة (كما في فيلم وقائع سنين الجمر).

8. نحو قراءة نقدية للاستشراق في السياق الجزائري المعاصر:

في ظل التحولات العالمية، من عولمة معرفية، وصراع سرديات، وتطور الذكاء الاصطناعي، بات من الضروري إعادة النظر في الاستشراق لا كظاهرة ماضية فقط، بل كخطاب مستمر بأشكال متعدّدة، منها ما هو ثقافي ومنها ما هو رقمي وإعلامي.

1.8 ما بعد الاستشراق: الاستشراق الجديد:

- يشير العديد من الباحثين (أمثال إدوارد سعيد وحمادي ذويب (إلى أن الاستشراق لم ينتهِ، بل تطوّر. فاليوم، لم تعد مراكز الاستشراق محصورة في الجامعات، بل ظهرت:
- مراكز دراسات استراتيجية غربية تُنتج تقارير عن الجزائر والإسلام السياسي.
 - إعلام عالمي يصنع صورة نمطية عن الجزائري بوصفه "عنيفاً" أو "متطرفاً".
 - السينما الأجنبية التي تُعيد تمثيل الماضي الاستعماري بخطاب مموّه يبرّر الاحتلال.
- كتب إدوارد سعيد: "الاستشراق نظام تفكير... يُنتج الشرق كمفهوم لكي يبقى الغرب متفوقاً¹.

2.8 تأمل في الفضاء الرقمي: استشراق الشبكات:

- في العصر الرقمي، تُمارَس أنماط جديدة من الاستشراق، من خلال:
- خوارزميات محركات البحث التي تروّج لصور نمطية سلبية عن الجزائر.
 - موسوعات رقمية (مثل ويكيبيديا باللغات الأجنبية) تكرر الخطاب الكولونيالي.
 - ذكاء اصطناعي يشتغل على قاعدة بيانات موروثة عن تمثيلات استشراقية.
- هذه المظاهر تُعيد إنتاج الاستشراق بصيغة تقنية غير مرئية، ما يستدعي يقظة نقدية أكبر.

9. دراسات حالة تحليلية للاستشراق الفرنسي في الجزائر (نماذج نصّية):

يُعد تحليل النصوص الاستشراقية التي تناولت الجزائر خطوة حاسمة لفهم آليات الخطاب وأدوات التمثيل الرمزي، حيث تُظهر هذه النصوص – سواء كانت تاريخية، أنثروبولوجية أو أدبية – كيف بُني "الجزائري" كـ "آخر" في مخيال المستشرق.

1.9 نموذج 1: كتاب "الجزائر" لـ إيتيان دينيه:

إتيان دينيه (Etienne Dinet) عاش فترة طويلة في الجزائر، وادّعى "التعاطف" مع الجزائريين، لكنه ظلّ يحمل تمثيلات استشراقية، منها:

- تصويره للجزائري كـ"كائن بسيط، عاطفي، غيبي".
- تقديم المرأة الجزائرية كرمز للغموض والإثارة الشرقية.
- استخدام صور ولوحات فنية تُظهر العربي في حالات "الكسل" و"الانقياد" و"التدين الطقوسي".

ويقول إتيان دينيه العربي لا يعيش الحياة، بل يتأملها، ورغم تعاطفه الظاهري، فإن دينيه يعيد إنتاج المنظور الأوروبي في تمثيل "الأخر المسلم".

2.9 نموذج 2: كتابات جول فاري (Jules Ferry) كمستند سياسي استشراقي:

جول فاري، من كبار المدافعين عن الاستعمار الفرنسي، برّر احتلال الجزائر بنوع من الرسالة الحضارية، قائلاً:

"يجب أن نذهب إلى هؤلاء الأقوام لنحمل إليهم النور الذي نملكه".

نجد في هذا الخطاب:

- مركزية الذات الأوروبية.
- شيطنة المجتمعات الإسلامية ووسمها بـ"الجهل" و"الظلام".
- تبرير الغزو والنهب بمفاهيم استشراقية مثل "نشر التقدم".

3.9 نموذج 3: المعجم الاستعماري للجزائر (Dictionnaire Colonial Algérien):

هو عمل موسوعي صدر في أوائل القرن العشرين، وضّمّ تعريفات "علمية" للقبائل، الأعراف، الرموز الدينية، لكنها كانت موجهة أساساً للمستعمرين:

- تعريف "الإباضية" مثلاً كمذهب "متطرّف" و"خارج عن مذاهب السنة الإسلامية".
 - وصف "الأمازيغ" بأنهم "أقرب إلى أوروبا من العرب"، ممّا يعكس سياسة "فرّق تسد".
- هذا العمل شكّل قاعدة معرفية تمّ الاستناد إليها في تشكيل الخطاب الرسمي الاستعماري.

4.9 تحليل تقابلي للنصوص:

من خلال مقارنة النماذج الثلاثة، نلاحظ:

العنصر	المعجم الاستعماري	فاري	دينيه
نوع الخطاب	معرفي/وصفي	سياسي/إيديولوجي	فني/ثقافي
تمثيل الجزائري	موضوع للدراسة والسيطرة	جاهل/متخلف	روحاني/عاطفي
موقع الذات الغربية	عالمة/خبيرة	مخلصة/متحضرة	"متعاطفة"
الهدف	تنظيم السيطرة الإدارية	تبرير الاستعمار	جذب الانتباه الثقافي

10. الخاتمة:

لقد كان الاستشراق في الجزائر جزءاً لا يتجزأ من المنظومة الاستعمارية التي سعت إلى تفكيك الهوية، وإعادة تشكيل الوعي، ونقل المركزية الثقافية من الداخل إلى الخارج. وإذا كان الاستشراق قد لبس في مراحل الأولى قناع "الفضول العلمي"، فإنه لم يلبث أن أصبح أداة للتحكم الرمزي والمعرفي.

ورغم التحولات العميقة التي عرفها الفكر الاستشراقي، فإن آثاره لا تزال قائمة بأشكال متعددة: في الخطاب الإعلامي، والبحث الأكاديمي، وحتى في رؤيتنا لذواتنا. ولعلّ أخطر ما في الأمر أن نُعيد إنتاج هذا الخطاب من دون وعي، أو أن ننقله باعتباره "علماً موضوعياً". إن تجاوز الاستشراق لا يكون بمجرد رفضه، بل يتطلب بناء مشروع معرفي بديل ينطلق من السياق المحلي، والمرجعية الإسلامية، ونقد المركزية الغربية، بما يؤسس لعلم إنساني عادل ومتعدد المرجعيات.

وتبقى مسؤولية الجامعات والمراكز البحثية والمثقفين مضاعفة، من أجل تحرير الوعي من الاغتراب المعرفي، وبناء خطاب يعكس تاريخ الجزائر وعمقها الحضاري، لا كما كتبه الآخر، بل كما تشهد به الذاكرة والمجتمع والعلم.

11. قائمة المراجع:

1. سعيد إدوارد. الاستشراق. ترجمة كمال أبو ديب، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1995.
2. بن نبي مالك، شروط النهضة، بيروت: دار الفكر، 1959.
3. العروي عبد الله، الإيديولوجيا العربية المعاصرة، بيروت: المركز الثقافي العربي، 2001.
4. سعيد إدوارد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1981.
5. بن نبي، مالك. فكرة الإفريقية الآسيوية. بيروت: دار الفكر، 1961.
6. ميموني، عبد الحكيم. "الاستشراق الفرنسي ووظائفه السياسية في الجزائر". مجلة الآداب واللغات، جامعة وهران، عدد 26، 2021.
7. الجابري محمد عابد، التراث والحداثة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991.
8. قسوم نور الدين، "الاستشراق من منظور إسلامي معاصر". مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، بيروت، عدد 5، 2012.
9. مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (CRASC). أعمال ندوة: الجزائر في عيون الآخر. وهران: 2018.
10. Al-Azmeh, Aziz. Islam and Modernities. London: Verso, 1993.
11. Said, Edward. Orientalism. New York: Vintage Books, 1978.